مناجاة الارواح

تهيئنا اسئلة سُئلناها في الشهر الماضي الى مقالة للاستاذ نيوكم الفلكي الاميركي الذائع الصيت نشرت في جزء يناير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية يظهر منها ان بحثهُ اوصلهُ الى ما اوصلنا اليهِ البحث في ما يقال عن مناجاة الارواح وصدق الاحلام وما اشبه. ثم ردَّ عليهِ السر اوليفر لدج العالم الطبيعي في جزء فبراير من تلك المجلة فرأينا ان نلخص المقالة الاولى والثانية لان الموضوع من اهم مواضيع البحث في هذه الايام

قال الاستاذ نيوكم ما خلاصتهُ : — اذا ادَّعى كبار العلماء انهم اكتشفوا اكتشافاً مهمًّا فالغالب ان الناس يصغون اليهم بالوقار ويقبلون قولهم بالاجلال ما لم تقم عندهم ادلة قوية على نقضهِ او على الشبهة فيهِ وقد شذَّت عن هذه القاعدة دعويان لهما شأن كبير فيحقُّ ان نوجه اليهما نظرنا وهما دعوى تفاعل العقول بعضها ببعض ودعوى فعل المادة بالعقل والعقل بالمادة وما كان من هذا القبيل فانهما قديمتان جدًّا سابقتان لعصر التاريخ والناس ميالون الى تصديقهما ومع ذلك نرى جمهور العلماء ينكرونهما ويعدونهما من قبيل الخرافات القديمة التي اهملها العلماء بعد ارتقاء العقل فقد اهملوا السحر واهملوا معهُ كل ما يقال عن فعل العقول بعضها ببعض بغير واسطة الحواس الظاهرة . ولكن قام الآن اناس من كبار العلماء وقالوا ان اسلافنا لم يخطئوا في ما كانوا يعتقدونهُ من هذا القبيل وان ما نحسبهُ من قبيل الخرافات لهُ اصل حقيقي لا شبهة فيهِ . ومن هؤلاء ثلاثة لهم القدح المعلَّى بين العلماء وهم السر اوليفر لدج والاستاذ بيرت والسر وليم كروكس . وقد قالوا ان العقول تتفاعل عن بُعد وان نفوس الموتى محيطة بنا وهي تقرع ابوابنا . فاذا كان ذلك من الحقائق المقررة فهو من اهم الامور لانهُ يخرج اعتقادنا ببقاء النفوس من حيز الايمان بما لا يدرك بالحواس الى حيز العلم بما يدرك بها ويجعلهُ من الحقائق العلمية ويفتح لنا مجالاً واسعاً لتربية عقولنا على ادراك ما في عقول غيرنا فنصير نتحادث معها كانت المسافات شاسعة بيننا ويقرأ بعضنا افكار البعض الاخر كما نقرأ صحف الاخبار . واذا كان الامر كذلك وجب على من ينكرهُ ان يبين الاسباب التي تحملهُ على الانكار والاَّ فسكوتهُ دليل على احتقارهِ لشأن الموضوع

واذ التفتنا الى جمهور الناس رأينا منهم فريقاً صغيراً جدًّا يؤيد ما تقدم من تفاعل العقول ومناجاة الارواح وفريقاً كبيراً ينكر ما تقدم او يقول انهُ خالٍ من كل دليل . وفريقاً ثالثاً بين بين يصدق الاخبار التي تروى عن تفاعل العقول ومناجاة الارواح ولكنهُ يقول

ان العلم لم يجد لها حلاً حتى الآن وهذا الفريق كبير ايضاً واعضاؤه من اهل العلم

قال الاستاذ نيوكم انهُ لما كان ولدًا كان يحاول جعل امهِ تفتكر بهِ بمجرد افتكارهِ بها فلم يفلح . ثم لما شاعت اعمال المدَّعين مناجاة الارواح منذ خمسين سنة بقرع الابواب والموائد امتحن بعضها فرأى فيها من الخداعات ما جعلهُ يهزأ بها ويستخف بهذا الموضوع كلهِ

وسنة ١٨٥٨ احتدمت نار الجدال في جريدة من جرائد اميركا في امر مناجاة الارواح والوسطاء واشعى الجدال بان واحدًا عرض مبلغًا طائلاً من المال جائزة للوسيط الذي يحرك مائدة من غير ان يلمسها او يقرأ ورقة من غير ان يراها او يقرع قرعة لا يُعرَف سببها . واشترط ان يكون ذلك امام لجنة يعينها هو . فقبل رئيس المعتقدين بمناجاة الارواح طلبهُ واتى باشهر الوسطاء من اماكن مختلفة . والفت اللجنة من ثلاثة وهم الاستاذ لويس اغاسز واستاذان آخران من اساتذة مدرسة كمبردج الاميركية وجرى الامتحان في نزل بوستن فلم يفتح الوسطاء في شيء واستصغر اولئك الاساتذة انفسهم لما رأوا انهم جلسوا ساعة بعد ساعة ولم يروا شيئًا يستحق الذكر . ولم يعمل الوسطاء الاَّ بعض ما يعملهُ المشعوذون عادةً وكان عذرهم عن فشلهم ان الارواح لا تظهر امام اناس لا يؤمنون بها . ومن ثم لم يعد الاستاذ نيوكم يعبأ بما يسمع عن مناجاة الارواح بل كان يقول للذين يكلمونهُ في هذا الموضوع ايتوني بوسيط تعتقدون صدقهُ ودعوني امتحنهُ على انفراد واخيرًا وجد الوسيط المطلوب وهو فتاة اسمها لوهرست عملت اعمالها المدهشة امام جماعة كبيرة وهو يدهشهم لكنها لم تدَّعِ انها فعلت شيئًا خارق العادة بل اظهرت كيف فعلت كل ما فعلتهُ . واتضح حينئذٍ ان كل ما سمعهُ الاستاذ نيوكم عنها قبلاً كان من قبيل المبالغة والوهم . وكان هناك جمهور من مخبري الجرائد فصدرت جرائدهم وفيها اغرب الاخبار كأنَّ الفتاة فعلت اعجب ما يدعيهِ مناجو الارواح

ثم انشئت جمعية اميركية للبحث في المسائل النفسيَّة على نسق الجمعية الانكليزية المنشأة لهذا الغرض وجُعل الاستاذ نيوكم رئيسًا لها فبحث ودقَّق وحقق فلم يجد ما يخرج عن حد المألوف او عن حد الافعال الطبيعيَّة المعروفة

ومن غريب الاتفاق ان الخطة التي جرى عليها الاستاذ نيوكم جرينا عليها نحن في حدود الرابعة والسبعين اشتهر امر التنويم المغنطيسي ومناجاة الارواح في مدينة بيروت وكان هناك امرأة ايطالية تدَّعي انها تكتشف الخفايا وتقرأ الافكار وبلغنا عنها امور كثيرة خارقة العادة واخيرًا دُعينا لمشاهدتها مع جماعة من الادباء وقيل لنا انها هي طلبت ذلك لتتمتع فرأيناها ولم نرَ غير خفافات يستطيعها كل محتال . ثم اشتهر كبرلند بقراءة الافكار

واستعظم الناس امرهُ ولاسيما بعد ان جاء القطر المصري ورأى الخديوي السابق ورسم صورة كان الخديوي يفكر فيها . ففسَّرنا فعلهُ في المقتطف قبل ان رأيناهُ ثم عرض اعمالهُ امام جمهور كبير في نزل شبرد فلم نرَ فيها غير ما فسَّرناهُ سابقاً وفسَّرهو اعمالهُ كما فسَّرناها نحن على مسمع ذلك الجمهور ومع ذلك فبعضاً كثيرين منهم يتحدثون باعمالهِ بعد ذلك وينسبونها الى قوة روحية تفوق الطبيعة ولا يزالون على اعتقادهم هذا الى اليوم

وبعد ان مهَّد الاستاذ تيرك التمهيد السابق طرق الموضوع من جهة اخرى فاشار الى نوعين من البحث بحث فيهما السر وليم كروكس احدهما اكتشافهُ الاشعة التي تصدر من التطبّب السلبي في الانابيب المنسوبة اليهِ وهي التي شرحناها في بعض المجلدات السابقة حالما اكتشفها واكتشف ايضاً حركة في بعض المواد لم يعلم لها سبباً . ومرَّت السنون من غير ان تظهر اهميَّة هذين الاكتشافين . وسنة ١٨٩٥ اكتشف الاستاذ رنتجن ان بعض الاشعة الصادرة من انابيب كروكس تخترق الاجسام غير الشفافة وتؤثر في الواح التصوير الشمسي وفي نحو ذلك الوقت اكتشف بكرل ان اشعة مثل هذه تصدر من الاورانيوم والحال تناول العلماء هذين الاكتشافين واشتغلوا بهما في كل مكان ووسعوا نطاق البحث فاكتشفوا الراديوم وفعل الاشعاع وكادت المكتشفات الحديثة في هذا الباب تقلب نظام العلوم الطبيعيَّة رأساً على عقب

هذا من قبيل اكتشاف كروكس الاول والآن ننظر الى ما تم في اكتشافهِ الثاني :—

انشئت جمعية الابحاث النفسية قبلما قام رنتجن بعشر سنوات وغرضها البحث عن القوى الخفيَّة وتأثير العقول بعضها ببعض من غير توسط المادة واكتشف حينئذٍ اكتشاف قدَّر لهُ قلب العلوم العقلية كلها لا سيما وان امتحانهُ بسيط جدًّا فانهم اجلسوا شخصاً على كرسي واغمضوا عينيهِ ووضعوا في يدهِ قلماً وورقة ووقف واحد وراءهُ ويدهِ اشكال هندسية ينظر اليها ويمعن نظرهُ فيها وكلما نظر الى واحد منها صوَّر الرجل المغمض العينين صورتهُ بيدهِ . وظاهر الامر ان عقل الرجل الذي كان ينظر الى الشكل الهندسي اثر في عقل الرجل المغمض العينين فارشد يدهُ الى رسم شكل مشابه لهُ . وأبدلت الاشكال الهندسية بصور اخرى فصوَّرها الرجل المغمض العينين وظهر من ذلك ان عقل الواحد يؤثر في عقل الآخر من غير وسائط التأثير العادية كالكلام واللمس

ولا يخفى ان هذا العمل بسيط لذاتهِ يسهل اجراؤهُ في كل مكان وفي كل بيت لانهُ لا يقتضي الاَّ ورقة وقلماً من الرصاص لا مثل امتحان انابيب كروكس وما تقتضيهِ من

الآلات الكهربائية الكبيرة الثمينة . فكان لمنتظر ان اكتشاف طريقة انتقال الافكار او تأثير العقول بعضها في بعض يذيع ويشيع في كل الدنيا اكثر مما يذيع استعمال اشعة رنتجن بالف مرة وقد مضى الآن خمس وعشرون سنة على هذا الاكتشاف ولكن ما هي نتائجهُ العملية . لا شيء . وما ذلك الاَّ لان ما قيل عن انتقال الافكار لم يثبت ثبوتاً عملياً ولا دلَّ على ناموس طبيعي يمكن اتباعهُ والجري عليهِ وان اشعة رنتجن وفعلها حقيقة عملية لان كل احد يستطيع ان يولّدها ويستعملها اذا استخدم الآلات اللازمة لتوليدها واستعمالها

اما انتقال الافكار فاذا ظهرت الطرق التي يتم فيها حتى اذا جربها اي كان نجح كما نجح غيرهُ اي نقل افكارهُ كما ينقل الذين يدَّعون نقل الافكار افكارهم صار انتقال الافكار هم حقيقة عملية . وقد حاولت جمعية المباحث النفسية معرفة الاحوال التي تنتقل فيها الافكار بالامتحان فوجدت ان الافكار تنتقل تارة ولا تنتقل تارةً اخرى ولم اجد في ما نشرتهُ في السنوات العشر الاخيرة انها تقدَّمت اقل خطوة في هذا الموضوع والظاهر ان النجاح في نقل الافكار يكون على اقلهِ اذا كان التدقيق في تجنُّب الخطإ على اكثرهِ دلالة على ان الخطأ سداهُ ولحمتهُ . وقد كثر الاهتمام بموضوع آخر وهو "التلبثي" اي الشعور عن بُعد او نقل الافكار الى الاماكن البعيدة ولكن ان كانت الافكار تجد صعوبة في الانتقال من انسان الى آخر والبعد بينهما بضع اقدام فكيف تنتقل من مدينة الى اخرى البعد بينهما شاسع جدًّا . وقد رووا حوادث كثيرة من هذا القبيل نشرت في الكتاب المعنون بتخيُّلات الاحياء وفي كل هذا السوق :- يحبس انسان او يحلم ان صديقاً او نسيباً اصيب بمكروه ويؤثر ذلك في ذهنهِ تأثيرًا شديدًا حتى يخاف من صدق ما حبس او حلم بهِ . وفي الصباح او حالما يصل البريد يأتيهِ كتاب وفيهِ خبر المكروه الذي اصاب صديقهُ او نسيبهُ في الساعة التي حبس او حلم فيها . وقد اجتهد جامعا ذلك الكتاب وهما الاستاذان غرني وميرس في جمع كل الادلة التي تثبت صحة ما ذكراهُ فيهِ من الاخبار مرَّبا ان كثيرًا منها يدل دلالة قاطعة على علاقة سببيَّة بين الحادثة وشعور من شعر بحدوثها . ولكن ألا يمكن تعليل ذلك باسباب معلومة غير انتقال الافكار فاذا كان ذلك ممكناً فلا داعي لفرض انتقال الافكار لانهُ لا ينبغي فرض اسباب مجهولة حيث يمكننا تعليل المعلولات باسباب معلومة ولا سيما اذا كانت الاسباب المجهولة بعيدة عن المألوف او عن المحتمل كانتقال الافكار

اما الاسباب التي تدعو الناس الى الاعتقاد بانتقال الافكار فكثيرة اولها مزج الصدق بالكذب على اسلوب يجعل التمييز بينهما صعباً فيدعي الذين يثبتون انتقال الافكار حدوث

امور لم تحدث حقيقةً ولكنهم توهموا حدوثها توهمًا لكثرة ما سمعوا عنها كأن يقولون لك ان فلانًا نوّم فلانة وهو بعيد عنها وهي لا تدري انهُ يقصد تنويمها في الوقت الذي نامت فيهِ والحقيقة انهُ لم ينومها الاَّ وهي عالمة انهُ يقصد تنويمها في الساعة التي نامت فيها

وثانيًا حذف امور مهمة من الخبر لو ذكرت فيهِ لكشفت سببهُ وازالت غرابتهُ . وقد تفحصت مرةً حادثة من هذا القبيل فقد قيل ان سفينة حربيَّة غرقت وغرق ربانها واكثر بحارتها وقبلما سافرت سفرتها الاخيرة همس احد رجالها انها ستغرق وطلب ان يعفى من البقاء فيها فلم يجب طلبهُ لعدم امر رؤسائهِ وترك السفينة فحوكم في مجلس عسكري كهارب من الخدمة ثم كان من غرقها ما كان . وقد ثبت لي لدى البحث ان القصة صحيحة بنوع عام ولكن ينقصها امر يزيل كل غرابتها وهو ان ذلك الرجل كان كثير الهواجس وقد همس مرارًا كثيرة ان السفينة ستغرق ولم تغرق ولا سافرت سفرتها التي غرقت فيها الاَّ بعد ما خرج منها بضعة اشهر وقد سافرت سفرات كثيرة بعد ما خرج منها وقبلما سافرت سفرتها الاخيرة التي غرقت فيها . فلما علمت واقعة الحال زالت الغرابة كلها

اذا حدثت حادثة لشخص ما وتأثر شخص آخر بعيد عنهُ وقت حدوثها لا يجوز ان يقال ان التأثير نتج عنها الاَّ اذا كانت في حقيقية وكان التأثير غير عادي . وفي اثبات ذلك كله مجال واسع للخطإ فاننا كنا معرّضون للخطإ في ما نتذكرهُ ولاسيما اذا اردنا ان نعين الوقت الحقيقي الذي حدثت فيهِ الحادثة وحدث فيهِ التأثير . وما اقل الذين يستطيعون ان يتذكروا ما حدث لهم امس او اول امس ساعة بعد ساعة من غير خطإٍ بزيادة او نقصان او ادخال امور حدثت في ايام سابقة . والظاهر ان الذين يكتبون عن انتقال الافكار لا يحسبون حساب ما يقع في ذلك من الخطإ . والغالب ان الخطأ يمازج الصواب ويبقى كذلك ولا سبيل الى اصلاحهِ . وما ادرانا ان ليس كل الاتفاقات الغريبة هي من قبيل الخطإ ولا يعلم الخطأ من الصواب الاَّ اذا وجد دليل قاطع على حدوث الحادثة كما وقعت تمامًا ويجب ان يكون مكتوبًا ومؤرخًا بحيث تنفى كل شبهة وهذا قلما يوجد او لا يوجد مطلقًا

ولا اتذكر الاَّ حادثة واحدة استُشهد فيها بشهادة شخص خارج عن المشتركين فيها فقد ذكر غرني وميرس سنة ١٨٨٤ حادثة جرت للسر ادمند هرتبي قاضي مجلس القضاء الفنصلي في شنغاي مفادها ان مخبرًا من مخبري الجرائد زارهُ ليلاً وطلب منهُ صورة حكم كان عازمًا ان يصدرهُ في اليوم التالي فقام من سريرهِ واملى على المخبر ما كان عازمًا ان يقولهُ في الصباح وصرفهُ بعد ان وبخهُ لانهُ اقلقهُ . ولما قام صبيحة الصباح ونزل الى المحكمة بلغهُ

ان الخبر المشار اليهِ مات بغتةً في الليلة الماضية ولما بحث عن الساعة التي مات فيها وجد انها تنطبق على الساعة التي تخيل فيها ان الخبر ايقظهُ فقام واملى عليهِ صورة الحكم . وقال غرلي وميرس ان زوجة القاضي وافقت على صحة ما قالهُ زوجها

ولما وصل ما نشراهُ الى شنغاي رآهُ بعض العارفين بواقعة الحال فاثبتوا ان بين وفاة الخبر والحلم الذي حلم بهِ ذلك القاضي شهرًا كثيرة وأخبر القاضي بذلك فأعترف انهُ كان يعتقد صحة ما رواهُ لما رواهُ . وواضح من ذلك ان الحادثة الوحيدة التي تدل دلالة قاطعة بشهادة شاهد على صحة انتقال الافكار وجدت لدى البحث مبنية على الوهم

ولا بد من احصاء الحوادث التي تصدق والتي لا تصدق حتى يعلم هل مدَّق التي صدقت مبني على سبب او هو من قبيل الاتفاق فاذا وضعنا مليون حبة من حبوب الحنطة البيضاء في كيس ووضعنا معها حبة واحدة سوداء واغمضنا عيني ولهُ وجعلناهُ يمد يدهُ الى ذلك الكيس ويستخرج منهُ حبة واحدة فالاحتمال انهُ يستخرج الحبة السوداء قليل جدًّا جدًّا فاذا مد يدهُ واستخرجها اول مرة استغربنا ذلك ثم اذا اعيدت الى الكيس ومدَّ يدهُ ثانية فاستخرجها ايضًا حكمنا ان الامر خارق العادة فاما انهُ استعمل حيلة ما او توجد جاذبية خصوصية بين يدهِ وحبَّة الحنطة . ولكن اذا استدعينا ثلاثين مليون نفس وطلبنا من كل واحد منهم ان يمد يدهُ الى الكيس ويستخرج منهُ حبة ثم يردها اليهِ حق لنا ان ننتظر ان واحدًا من تلك الثلاثين مليونًا يستخرجون الحبة السوداء نحو ثلاثين مرة واذا استخرجوها عشر مرات فقط حكمنا انهُ يوجد سبب يعد ايادي بعض عنها او انهُ وقع غلط في عدد المرات . فالمسألة اذًا متوقفة على احصاء المرات التي تصيب فيها الحوادث والمرات التي تخطئ فيها فاذا أُحصيت الحوادث التي وقعت فيها الاصابة واهملت الحوادث التي وقع فيها الخطأ فالحكم المبني على الحوادث المصيبة غير صحيح

وقد ظهر من استقراء جمعية المباحث النفسية ان عشر الناس معرَّض للخيالات والتخيلات والهواجس والاحلام وعليهِ فالذين يتخيلون ويهجسون من بين الناس كلهم يعدون بالملايين الكثيرة فاذا تخيلوا موت اقربائهم واصدقائهم ولم يمت منهم حينئذٍ الَّا شخص واحد من كل مليون فعدد الذين يموتون حينما يتخيلونهم يجب ان يكون كثيرًا . ومعلوم اننا نتذكر ما يصدق من احلامنا وهواجسنا وننسى ما لا يصدق فلا تناسب بين ما يصدق وما لا يصدق . وزد على ذلك اننا اذا حلمنا حلمًا ثم حدث ما حلمنا بهِ فعلقهُ بالحلم وزمانهِ ولو حدث بعدهُ وتوفقهُ عليهِ ولو كان مخالفًا لهُ من وجوه كثيرة على غير قصد منا

لما نشرت مقالة الاستاذ نيوكم وتعقبها استرستد في مجلة المجلات الانكليزية وعنون

ما كتبهُ عنها بكلام مأثور عندهم وهو " لا اشد عمىً من الذين لا يريدون ان يبصروا "
وذكر حادثة جرت لهُ يعتقد انها حجة قاطعة على انتقال الافكار قال ان سيدة من صديقاتهِ تكتب بيدهِ اي تحرك يدهُ حينما تريد مهما كانت بعيدة عنهُ فتكتب ما تملي عليها باسهل مما تكتب في يدها . وكانت هذه السيدة قد مضت الى هسلمير مكان يبعد عن لندن نحو اربعين ميلاً واراد المستر ستد ان يعرف هل هي باقية هناك فاخذ القلم بيدهِ ووضعهُ على القرطاس وسألها في ذهنهِ هل رجعت الى لندن فكتبت يدهُ ما ترجمتهُ

" يسوءني ان اخبرك انهُ اصابني ما غاظني جدًّا واكاد اخجل من ذكرهِ وهو اني خرجت من هسلمير بعد الظهر باعتين و ٢٧ دقيقة وكان معي في مركبة سكة الحديد امرأتان ورجل فلما وصل القطار الى غودلمن نزلت المرأتان وبقيت وحدي مع الرجل فلما سار بنا القطار قام من مكانهِ وجلس الى جانبي فخفت وابعدتهُ عني فحاول ان يبرسني فتبضت على مظلتهِ وضربتهُ بها فانكسرت وخفت ان يتغلب عليَّ ولكن القطار خفف سيرهُ حينئذٍ لانهُ دنا من محطة غلدفورد فخاف الرجل وتركني ونزل قبلما وصل القطار الى الرصيف وركض هاربًا وترك المظلة معي "

قال المستر ستد وارسلت كاتبي اليها وارسلت معهُ كتابًا الولـــ فيهِ ان ما جرى لها كدرني وطلبت منها ان تحضر مظلة الرجل معها حينما تأتي اليَّ . فكتبت اليَّ الجواب تقول لقد ساءني اطلاعك على ما جرى لاني كنت عازمة ان لا اخبر احدًا وساآخذ المظلة معي ولكنها مظلتي لا مظلتهُ

ومثل هذه القصة يريد المستر ستد ان يثبت ان عقل هذه المرأة يحرك يدهُ من غير ان تشعر هي بما يفعلهُ عقلها ولماذا لا يفسر ذلك بان الرجل كتب الحادثة كما وقعت في احدى الجرائد ولم يذكر اسمهُ واكتفى بوصف المرأة عن ذكر اسمها (والجرائد الانكليزية تذكر كل ما كان من هذا القبيل) ووقع نظر المستر ستد على الكتابة وهو مشغول بموضوع آخر فنسي انهُ قرأها وتوهم انهُ كتبها بيدهِ وهذا مما يقع لكل احد وهو اقرب الى العقل من ان عقل تلك المرأة يؤثر في يد رجل بعيد عنها اميالاً كثيرة ويفشي لهُ ما لا تريد افشاءهُ وهي غير شاعرة بشيء من ذلك . ولا ندري كيف يسهل على بعض الناس ان يبلعوا حبلاً لكي يتخلصوا من بلع قولة

اما مقالة السر اوليفر لدج فسنأتي على خلاصتها في الجزء التالي